الكتاب الثامن

لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟!

لأمير البيان شكيب أرسلان

تحليل وعرض أ. د. السيد أحمد فرج

أولاً: التعريف بأمير البيان شكيب أرسلان:

شكيب أرسلان: شاعر وناثر، وكاتب صحافي، وسياسي عربي، اشتهر بالمطالبة بوحدة العرب والمسلمين، وعرف بالأمير لأنه سليل بيت إمارة. وكان له قدم سبق في مجالات: اللغة والأدب والصحافة، فقد كتب في أشهر الصحف التي عاصرها مثل: الفتح، والمؤيد، والأهرام، والشورى، والرسالة، والشباب، والمشرق، والعرفان، ومجلة المنار، ومجلة المجمع العلمي العربي.

ظل شكيب أرسلان يدعو إلى وحدة العرب والمسلمين إلى يوم وفاته في سنة ١٩٤٦م. ولد شكيب - ومعنى الاسم بالفارسية «الصابر» في يوم الاثنين أول ليلة من رمضان سنة ١٢٨٦هـ - ٢٥ من ديسمبر ١٨٦٩ بقرية الشويفات من منطقة الشوف على عشرة أميال من مدينة بيروت. وكان ترتيب ميلاده الثاني بين إخوته، أبناء حمود، بن حسن، بن يونس، بن فخر الدين، بن حيدر، بن سليمان الذي يمضى النسب به إلى أرسلان الذي مات في سنة ١٧١هـ الذي كان من نسل الملك المنذر بن ماء السماء اللخمي ملك الحيرة في العصر الجاهلي فلما جاء الإسلام كان جده عون مجاهدًا في جيش خالد بن الوليد ﷺ بالشام. وكانت أم شكيب سيدة شركسية فاضلة[1]. وتوفى شكيب أرسلان في التاسع من ديسمبر سنة ١٩٤٦م.

عاش شكيب أرسلان قرابة الثلث الأخير من القرن ١٩ وقرابة النصف الأول

(١) د. سامي الدهان: شكيب أرسلان حياته وآثاره، ص٦٠، دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٦، ط ٢.

من القرن العشرين، وكانت هذه الفترة فترة غليان سياسي بالعالم العربي والإسلامي، إذ كانت أغلب بلاده تحت الاحتلال الإنجليزي والفرنسي، وما نجا من الاحتلال منها، وقع تحت ظلم الحكام العثمانيين الذين كانت لهم السيادة على بعض أجزائه. وفى هذه الفترة قامت حربان عظميان، وفيها أُقْتُطعت فلسطين أعز أرض على العرب والمسلمين، ومنحت للعصابات الصهيونية، عاش شكيب هذه الفترة متأثرًا بأحداثها ومؤثرًا فيها.

في الخامسة من عمره أحضر له والده في البيت معلمين يدرسون له مبادئ القراءة والكتابة والحساب ويحفظونه ما تيسر حفظه من القرآن الكريم، وفى سنة١٨٧٩ م التحق بمدرسة الحكمة المارونية ببيروت وكان لها شهرة كبيرة في تعليم اللغة العربية، ولقد تأثر فيها بالشيخ عبد الله البستاني اللغوي المعروف، ولما زار الشيخ محمد عبده – وكان في منفاه ببيروت – هذه المدرسة التقى شكيب وأعجب بذكائه وتفوقه، خاصة في مادة اللغة العربية.

وفى سنة ١٨٨٧ م انتقل شكيب إلى المدرسة السلطانية ببيروت، وفيها تلقى دروس الفقه والتوحيد على الشيخ محمد عبده. وفى سنة ١٨٩٠ م حل شكيب بمصر زائرًا لأول مرة، وكان مشوقًا إليها فهي في عقله وقلبه بلد الثورة العرابية. وفى هذه الأثناء التقى الشيخ محمد عبده وكان قد عاد من منفاه، وزار صحيفة المؤيد وتوثقت علاقته بالشيخ على يوسف، كما زار صحيفة الأهرام، وتوثقت علاقته بالصحيفتين وصار من كتابها.

وفى آخر سنة ١٨٩٠ م سافر إلى الآستانة وقابل جمال الدين الأفغاني، وكان مشوقًا للقائه، وفى سنة ١٨٩٢ م سافر إلى فرنسا والتقى بالشاعر أحمد شوقي وتصادقا، فكانا يلتقيان يوميا في مقهى «داركور Dharcourt».

ولما عاد من فرنسا عُين مديرًا للشويفات مدة سنتين، ثم عين بوظيفة قائمقام مقاطعة الشوف مدة ثلاث سنوات.

وفى سنة ١٩٠٩م اختير عضوًا بمجلس المبعوثان بتركيا نائبًا عن إقليم حوران السوري تقديرًا من الدولة العثمانية، بسبب تأييده للتعاون العربي التركي، وموالاته للخلافة العثمانية.

وفى سنة ١٩١١م احتلت إيطاليا ليبيا، فغضب لذلك ودعا العرب والترك لتخليص ليبيا من الاحتلال الإيطالي، وحضر إلى مصر والتقى بصديقه الشيخ محمد رشيد رضا، وظل بمصر أربعين يومًا كتب فيها أربعين مقالًا كانت افتتاحيات صحيفة المؤيد لأربعين عددًا.

وفى سنة ١٩١٢م اختير مفتشا لبعثات الهلال الأحمر المصري، وفى سنة ١٩١٤م سافر إلى المدينة المنورة ليؤسس مدرسة بها.

وكان شكيب أرسلان حتى ذلك الوقت عثماني الهوى لأنه كان «يرى في الخلافة العثمانية عز الإسلام وقوة العرب»[(١)] ولكن بعد أن أسرف الحكام الأتراك في ظلم العرب، وزاد شر نوايا إنجلترا وفرنسا بتقسيم العالم العربي واحتلاله كله، بعد أن كانوا قد احتلوا بعضه، نفض يديه من كل من الأتراك والمحتلين الغربيين، وتراءى له أن الغرب يروم هدم الأمتين العثمانية والعربية، فقد كان الغرب يرى في الأولى سياجًا للعالم الإسلامي، وفى الثانية مادة الإسلام.

ولما تعلمنت تركيا، وقطعت أواصر ارتباطها بالإسلام والعروبة بفعل كمال أتاتورك، قطع شكيب علاقته نهائيًا بتركيا، وتفرغ بكل جهده لنصرة القضايا العربية، والدعوة إلى الوحدة العربية[(٢)]، وهو ما جعله في سنة ١٩٢٢م ضمن الوفد السوري الفلسطيني للدفاع عن حقوق العرب أمام عصبة الأمم المتحدة، فأدهش

(١) شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، الشيخ أحمد الشرباصي ، وزارة الثقافة والإنشاء القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٣، ص٣٣.

(٢) السيد رشيد رضا وإخاء أربعين سنة ، شكيب أرسلان ، مطبعة ابن زيدون ، دمشق ، ١٩٣٧م، ص ١٦١.

مندوبي الأمم بما حمل من الوثائق المهمة التي تؤكد الحقوق العربية[١].

وفى سنة ١٩٢٤م أسس هيئة الشعائر الإسلامية ببرلين، وهى هيئة تهتم بأمور المسلمين المقيمين بأوربا، وفى سنة ١٩٢٥م أخذ يكتب مقالات تحت عنوان: أزفت ساعة الاتحاد أيها العرب. ثم أخذ يبث نشاطه في المحافل الدولية في أنحاء أوربا لخدمة القضايا العربية، فكان أول داعية عربي للوحدة العربية والجامعة العربية. ولكن المصائب أخذت تلتف حوله في سنة ١٩٢٦م فقد أصبح مطاردًا من تركيا لأنه كان يدعو إلى الوحدة العربية والجامعة العربية، وصار مطاردًا من فرنسا لأنه كان يدافع عن سوريا، وفى مصر طارده الملك فؤاد لغلبة ظنه أنه كان يدعو سرًا للخديوي عباس حلمي الثاني للعودة لعرش مصر، وانتهى به المقام منفيًا بسويسرا حيث ظل يجاهد بالكلمة داعيًا إلى تحرير البلاد العربية والإسلامية وكان قد اتخذ له بيتًا خاصًا يطل على بحيرة ليمان، كان مقصد كل عربي يزور سويسرا[٢].

وفى سنة ١٩٢٩م ذهب إلى الأراضي المقدسة ليؤدى فريضة الحج، وهناك التقى بالملك عبد العزيز آل سعود، وألف كتاب: «الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف».

وسافر شكيب إلى أسبانيا سنة ١٩٣٠ فأصدر كتاب: الحلل السندسية في الآثار والأخبار الأندلسية «وفى السنة نفسها أصدر مجلة «الأمة العربية» بالفرنسية في جنيف للدفاع عن قضايا العرب.

وفى سنة ١٩٣٧م سمحت له فرنسا لأول مرة – من بعد نفيه – بزيارة سوريا. وفى سنة ١٩٣٩م أذن له المسئولون بمصر بزيارتها، فقضى بها أربعة أشهر، ثم عاد إلى أوربا ليواصل كفاحه، وظل على هذه الحال، إلى أن عاد قبيل وفاته إلى الشويفات

(١) د. محمد رجب البيومي: موسوعة أعلام الفكر الإسلامي، ص ٥٠٧.
(٢) د. محمد رجب البيومي، السابق، ص ٥٠٦.

ليموت ويدفن بها في التاسع من ديسمبر سنة ١٩٤٦م.

صفات شكيب أرسلان البدنية والخلقية:

كان شكيب أرسلان يميل إلى الطول في القامة - حنطي اللون، وكان أميل إلى امتلاء الجسم، وكان في صوته خشونة، وكان يتميز بصفاء القلب، ونقاء الضمير، وكان يحب أصدقاءه ويقدرهم ويكتب في مناقبهم كما فعل مع شوقي أمير الشعراء ورشيد رضا، كما كان وفيًّا لشيوخه وفى مقدمتهم الشيخ عبد الله البستاني والشيخ محمد عبده. وكان حريصًا على الوقت لا يضيعه، وكان مكثرًا في الكتابة - خاصة كتاباته الصحافية التي لو جمعت لكانت تاريخًا للأمة العربية والإسلامية في مجالات: السياسة، والاقتصاد السياسي، والوحدة العربية.

ولقد وُصف الأمير شكيب أرسلان بأنه زعيم عربي كبير عمل للوحدة العربية، ونادى بالجامعة الإسلامية، وجاهد في سبيلها من بداية العقد الثاني من القرن العشرين، كما كان خير محام عن العروبة والإسلام، كما كان كاتبًا مجليًا وقف قلمه للدفاع عن الوطن العربي والدين الإسلامي. ولأنه كان وحدويًا بالفطرة فقد نال تقدير المؤسسات السياسية والحكومية التي عملت للوحدة العربية والرابطة الإسلامية منذ خمسينات القرن العشرين خاصة في مصر التي كرمت حكومتها ذكرى جهاده الإسلامي والعروبي، فقررت جهاده مقررًا دراسيًا على طلاب معهد الدراسات العربية العالية بالجامعة العربية في سنة ١٩٥٨م وقام بتدريس المقرر الكاتب المفكر د. محمد سامي الدهان.

وكان شكيب يتميز بقوة الحفظ، ويؤكد ذلك ويثبته أنه كان قد فقد مجموعة من قصائده المدونة في الأوراق، وبحث عنها فلم يجدها فأملاها عن ظهر قلب، ولم ينس بيتًا واحدًا منها[1].

(١) ارجع إلى كتابه شوقي أو صداقة أربعين عامًا، ص ٣٣.

وكان شكيب يحتد في نقاشه أو حواره في بعض الأحيان، مما كان يقلب عليه من كان يخالفهم الرأي، وكان في بعض الوقت يسارع إلى إبداء الرأي أو الرد فيقع في الخطأ أو القصور[١]..

ورسالة: لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟، لم تسلم من قصور نتج عن التسرع، فمع أنها صحيحة ممتازة في مضمونها، فإن ترتيب الأفكار فيها وسردها لم يكن جيدًا جدًا، فقد اعتمد على ذاكرته في كتابتها، ومع أن ذاكرته كانت قوية حديدية، ومع أنه عاش تجارب قضايا العرب والمسلمين في حاضرهم، فإن ذلك ليس بكاف لإنجاز رسالة كهذه تحيا بها الأمة، مما جعل الرسالة على طولها (١٦٧ صفحة) تبدو أقرب إلى خطبة طويلة، أو مقال طويل فيها من الحماسة والتحميس، أكثر مما فيها من البحث العلمي الدقيق.

وكان شكيب أرسلان يلقب بكاتب الإسلام لدفاعه المستمر عن الإسلام، وبكاتب العروبة لدفاعه الدائم عن العرب والعروبة.

ويعد شكيب أرسلان مفكرًا من مفكري مدرسة المنار، وعضوًا عاملًا بها تدور أفكاره في دائرتها مثل:

١- الحث على تعليم البنين والبنات وتربيتهم تربية صحيحة.

٢- الترغيب في تحصيل العلوم والفنون العصرية.

٣- التنشيط في مجالات الأمم المتمدنة في العلوم النافعة.

٤- الترغيب في طروق أبواب الكسب والاقتصاد.

٥- شرح الدخائل التي مازجت عقائد الأمة والأخلاق الرديئة التي أفسدتها، والتعاليم الخادعة التي ألبست الغي بالرشد، والتأويلات الباطلة التي شبهت الحق

(١) أرسلان: رشيد رضا أو أخوة أربعين عامًا، ص ٦٥١، ٦٧٤.

بالباطل. (راجع افتتاحية العدد الأول من مجلة المنار).

وقد دارت أفكار شكيب وكتاباته في إطار هذه المجالات.

أهم مؤلفات شكيب أرسلان:

١- باكورة وجدان (شعر) .

٢- الدرة اليتيمة (تحقيق وتعليق) .

٣- رواية آخر بنى سراج (ترجمة) .

٤- المختار من رسائل الصابي(تحقيق وتعليق) .

٥- بيان إلى الأمة العربية (عن حزب اللامركزية) .

٦- أعمال الوفد السوري الفلسطيني في الأمم المتحدة.

٧- حاضر العالم الإسلامي - تعليقات على كتاب الباحث الأمريكي: لوثروب ستودارد - لو جُمعت في كتاب مستقل لكانت كتابًا مستقلًا مهما في بابه.

٨- أناتول فرانس في مباذله.

٩- لائحتي إلى مسيو جوفينيل.

١٠- محنة الأمة العربية بالفرنسية.

١١- لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟ .

١٢- الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف.

١٣- الوحدة العربية.

١٤- محاسن المساعي في مناقب الإمام الأوزاعي (تحقيق).

١٥- ديوان شكيب أرسلان.

١٦- تاريخ غزوات العرب في فرنسا وإيطاليا.

obeikan.com

١٧- النهضة العربية في العصر الحاضر.

١٨- شوقي أو صداقة أربعين سنة.

١٩- رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة.

٢٠- تاريخ ابن خلدون (تحقيق).

٢١- الحلل السندسية في الأخبار الأندلسية.

٢٢- شروط الاتحاد بين أهل الجهاد.

٢٣- رسالة رحلة ألمانيا.

٢٤- رسالة عن ضرب الفرنسيين لدمشق.

٢٥- مقالات شكيب أرسلان.

عدا مئات المقالات الصحفية التي لم تجمع في كتب، وغير كثير من الكتب التي لا تزال مخطوطة مثل:

١- ما لم يرد في متون اللغة.

٢- حياة شكيب أرسلان بقلمه.

٣- طرابلس وبرقة (احتلال إيطاليا لليبيا).

٤- مدنية الغرب.

٥- تاريخ لبنان.

٦- الحلة السنية في الرحلة البوسنية.

كتاب: (رسالة) لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟:

قال شكيب أرسلان في حواشيه على كتاب حاضر العالم الإسلامي وهو يشير إلى هذه الرسالة: «ولقد رأيت أن أنقل أيضًا إلى هذه الحواشي جملة أوردتها في

obeikan.com

رسالة: لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟[١].

ويؤخذ من كلامه شيئان أولهما: أنه أطلق بنفسه على: لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟ رسالة. والثاني: أن ما كتبه فيها كان من الأمور التي تشغله في كل كتاباته. وهو ما يؤكد أهمية هذه الرسالة التي بلغ عدد صفحاتها في طبعتها عن دار البشير ١٦٧ صفحة.

أسباب تأليف: لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم.

أشار رشيد رضا في الجزء الخامس من المجلد الحادي والثلاثين من مجلة المنار الصادر في ٢٩ من رجب سنة ١٣٤٩هـ - ٢٠ / ١٢ / ١٩٣٠، ص ٣٥٤. إلى أن أحد قراء المنار، وهو الشيخ محمد بسيوني عمران (إمام مسجد بجزيرة جاوة (إندونيسيا) قرأ ما جاء في مجلة المنار، وكذا تفسير المنار عن بيان لهذا الموضوع، كما قرأ مقالات الشيخ محمد عبده في كتاب الإسلام والنصرانية - في الموضوع نفسه، وإنما غرضه أن يكتب في ذلك أمير البيان شكيب أرسلان بقلمه المؤثر، المعبر عن معارفه الواسعة، وآرائه الناضجة، لتجديد التأثير في أنفس المسلمين بما يناسب حالهم الآن.

قال الشيخ رشيد رضا: اقترحت هذا الاقتراح على أخي الأمير شكيب أحثه على كتابته في المنار.. فأرجأ الجواب عنه لكثرة الشواغل إلى أن عاد من رحلته الأخيرة من أسبانيا، وقد أَثَّرت في نفسه حضارة العرب الغاربة، وحضارة الغرب الواقعة، فكتب البلاغ منفعلا بهذه المؤثرات[٢].

وكان الجواب مقالات مطولة في الأجزاء: الخامس والسادس والسابع من المجلد الحادي والثلاثين من المنار. ولما أراد أن يجعلها في كتاب أو رسالة مستقلة

(١) حاشية حاضر العالم الإسلامي ١ / ١٠٦، ١٢٧ الطبعة الثانية.
(٢) راجع مقدمة الرسالة للشيخ رشيد رضا.

أضاف إليها من الأفكار القريبة مما كتبه، وكانت مختزنة في داخله، كتلك التي كتبها في تعليقات كتاب «حاضر العالم الإسلامي» وحواشيه.

إذن فلم تكن الأفكار التي نثرها شكيب في: لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟ بالأفكار الجديدة عليه. فهي تتضمن أمورًا عايشها، وكان الناس يضعون فيه ثقتهم ليبين لهم أسباب ما صار إليه المسلمون من ضعف وانحطاط، في ذات الوقت الذي ارتقت فيه أمم الغرب، خاصة وإن الموضوع كان من الموضوعات التي تشغله، وجاهد وناضل من أجلها، ونفى عن وطنه بسببها، فالسؤال كان يلح عليه في داخله من قبل أن يُسأل فيه.

كان شكيب أرسلان لا يرى سبب تخلف المسلمين في قهر المحتلين لهم ولأرضهم، بقدر ما هو بسبب تخليهم عن جوهر دينهم، وفساد أخلاقهم وأخلاق أمرائهم.

ولقد كان تركيز شكيب في الأغلب على فساد الأمراء الذين توطن في نفوسهم أن الأمة خلقت لتكون ملكا لهم، وقد رسخ هذا المعتقد فيهم فقهاء السوء من العلماء المتزلفين.

قال شكيب: «وجاء العلماء المتزلفون لأولئك الأمراء المتقلبين في نعمائهم الضاربين بالملاعق في حلوائهم وأفتوا لهم بجواز قتل النصاح بحجة أن الناصح شق عصا الطاعة، وخرج على الجماعة» (ص ٤٣) وأحدث الفتنة، ولم يكتف هؤلاء العلماء بذلك، بل دعوا إلى الجمود وترك العمل بالعلوم والفنون العصرية لأنها من عمل الكفار. وبدلا من أن يوقظوا الناس، ويزيلوا حجب الظلام عن أعينهم، أضلوهم وأغرقوهم في الظلمات».

قدم الشيخ رشيد رضا للكتاب بتقديم غاية في الإيجاز بَيَّن فيه وجوب إيمان

الأمة بالتغيير إلى الأفضل، وأن يعملوا بكل طاقاتهم من أجل تحقيق حياة دنيوية طيبة رغدة، تُوصل إلى حياة أخروية خالدة، وبين كذلك في المقدمة أن تقدم المسلمين رهن بالعمل بما جاء في القرآن الكريم، والسير عل هداه من الحث على العمل والنظر والبحث والتجريب من أجل التقدم في كل مجالات الحياة الدنيا. ذاكرًا الآيات الكريمة التي تبين ذلك.

الكتاب يبدأ بعبارات تقريرية.

يبدأ كتاب (رسالة) لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟ بعبارة تقريرية، وكأن الكاتب يريد أن يقول إن الأمر لا يحتاج إلى مقدمات إذ هو أمر بات. يقول شكيب: «إن الانحطاط والضعف اللذين عليهما المسلمون شيء عام في المشارق والمغارب» أي في جميع بلاد المسلمين، ولعله أراد بهذه البداية أن يقدم بيان حال المسلمين منذ ألف عام إذ كان المسلمون هم الصدر المقدم للعالم، والسيد المرهوب المطاع بين الأمم شرقًا وغربًا» وبضدها تتبين الأشياء.

وبعد التقرير السابق يقدم أسباب ارتقاء المسلمين في ماضيهم الزاهر في مجالات: القوة العسكرية، والاقتصادية والعلمية، وفى مجالات الثقافة والفنون والصناعات والتجارة، وغير ذلك - فيوجزه فيما يلي:

١- التمسك بالدين والعمل بما جاء في القرآن الكريم، فالعمل بأوامر القرآن ونواهيه أنشأ العرب وكل من دخلوا الإسلام من الأمم نشأة جديدة، فقد كان القرآن في إحدى يديهم وفى اليد الأخرى القوة المادية، وبهما تعاملوا مع الكون، فسخره الله تعالى لهم. ولأن الإسلام ارتقى بهم، ورفعهم وأعزهم، تقدموا وارتقوا وسادوا ومجدوا، فكأن شكيب بذلك يدعوهم قبل طلب النهضة إلى العودة إلى القرآن وفهمه الفهم الصحيح، ثم العمل به.

سبب تقدم الغرب اليوم وتخلف المسلمين:

لقد ارتقى الأوربيون بحبهم لأوطانهم، وحب الذود عنها، والموت في سبيل نصرتها وبذل الغالي والنفيس في سبيل رفعتها، في ذات الوقت الذي استكانت فيه الأمة الإسلامية لواقعها، ولما أرادت أن تعيد استقلالها ظنت أنه يمكن أن يعود بالدعاء بطلب النصر من الله دونما تضحية أو فداء بالمال والنفس، فهي تطلب من الله النصر بغير شروط، قال الله تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧]، وقال تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩]. ولقد ظن المسلمون أن الله ناصرهم بالصلاة والزكاة والصيام، وبالدعاء بدون بذل المال والنفس، وليس الأمر كذلك، فإن عزائم الدين لا تنحصر في العبادات وكفى.

وإذا كان بذل المال والتضحية بالنفس أهم أسباب الرقى، وإذا كان عدمهما من أسباب الانحطاط، فإن هناك أسبابًا أخرى يجب تحقيقها في مقدمتها التحلي بالأخلاق الكريمة، والتضامن والتكافل فيما بين المسلمين على أعدائهم، وأن يقاطعوا كل من يقف منهم موقفًا عدائيًا، والتعاون فيما بينهم في الحرب على المحتلين في مصر والجزائر وتونس والمغرب وليبيا وكل أرض عربية وإسلامية. ويحثهم شكيب على ذلك، وينعى الذين يتكاسلون عن نصرة إخوانهم ويقول فيهم: «لقد تكاسلوا عن نصرة دينهم وأوطانهم، ومالأوا قوى الاحتلال على ابن ملتهم، بل قاتلوا في صفوفهم في الحرب العالمية الثانية، لأنهم وعدوهم كذبًا بالاستقلال، ولولا هذا التبرع بالخيانة، والتسرع في مظاهرة الأجنبي على ابن الملة لما استأسد الأجنبي، وصار يتحكم في المسلمين» لقد كان المسلم في الماضي في الحرب على الأعداء يتقدم للموت قائلا:

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدما

وفى عصرنا الحاضر: بينما يموت الفرنسي لأجل حياة فرنسا، والألماني لأجل حياة ألمانيا، والإنجليزي في سبيل حياة إنجلترا، ويجد كل واحد منهم الموت على نفسه واجبًا لا يمكن أن يتأخر عن أدائه» يتكاسل المسلمون عن نصرة دينهم وأوطانهم. فالأوربيون يموتون في سبيل أوطانهم، والمسلمون يتسابقون على خيانة أوطانهم، والخيانة ليست محصورة في العوام والجهلاء الذين لا يدرون ما الكتاب، ولكن أيضا في الخواص من الأمراء وفى الفقهاء الذين يخونون الدين والوطن، تزلفًا للأمراء. «إن هؤلاء الفقهاء خانوا الأمة وساعدهم خنوع الأمة، ولو كانوا يخشون الأمة ما تجاسروا على الاتجار بدينها، بعد أن تاجروا بدنياها» إن الإسلام يُهدم بأيدي أبنائه، من المسلمين فصدق فيهم قول الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧] إن هؤلاء وهؤلاء «أبوا إلا أن يكونوا مطايا للأجانب على حساب أوطانهم، وتراهم مع ذلك وافرين ناعمي البال، متمتعين بالهناء وصفاء العيش، وهم يأكلون مما باعوا من تراث المسلمين».

أراد شكيب أن يقول: إن سبب تأخر المسلمين هم الذين صنعوه بأيديهم صنعه الأمراء، وأيدهم الفقهاء، وسكتت عنه الأمة الخانعة، لكن شكيب لم يفقد الأمل في صحوة إسلامية كتلك التي في فلسطين، وفى جهاد الأفغان ضد الإنجليز (في عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته)، ويؤكد على أن النوايا إذا حسنت، واقترن الإيمان بالعمل صلحت هذه الأمة.

الموازنة بين المسلمين والنصارى (الأوربيين) في البذل:

لكي يبرز شكيب أرسلان هذه الموازنة، وازن بين حالين، الأولى إيجابية يؤديها الأجانب على أحسن وجه، والثانية سلبية يعايشها المسلمون على أسوأ ما يكون.

أما الأولى فتتلخص في موقف الكنيسة الكاثوليكية في الإيقاع بين العرب والبربر في المغرب وكلهم مسلمون، ثم محاولة تنصير البربر، فدبرت الكنيسة

الكاثوليكية لهذا الأمر المال اللازم وأقامت أبنية الكنائس، واستجاب لها كل الذين يدينون بالكاثوليكية وقدموا المال الوفير من أجل مهمة التنصير، فهل لو سُئل أغنياء المسلمين أن يبذلوا المال لبناء المساجد والدعوة إلى الإسلام أتراهم يستجيبون؟ الإجابة: لا. وبينما يبذل الكاثوليكي والبروتستانتي القناطير المقنطرة من المال ويحميها بطائراته ودباباته، يتكاسل المسلمون عن التبرع من أموالهم أو التصدق بأقل القليل، وهذا الذي يفعلون من أسباب تأخرهم.

ويضيف شكيب ذكر شر وقع بالأمة فوق ما تقدم، وهو أن علمانيّ الأمة الإسلامية قنعوا بأقاويل المستشرقين الغربيين الذين بثوا فيهم أن سبب تخلف المسلمين «إنما جاء عن اختلاط الدين بالدنيا، وعن عمل المسلمين بشرع سماوي وقالوا بزعمهم: إذا أرادت الأمم الإسلامية الرقى وجب عليها أن تنبذ الشريعة الإسلامية التي أصبحت لا تصلح لعصرنا»[(١)].

وبعد أن يكتب شكيب تقريرًا وصفيًا لما عليه المسلمون في حياتهم الراهنة، يطرح سؤالًا هو: **ما أهم أسباب تأخر المسلمين؟! ويجيب عليه بما يلي:**

السبب الأول: الجهل وعدم القدرة على التمييز بين الصحيح الذي يصلحهم، وغير الصحيح الذي يضرهم، وفى الغالب يوقعهم الجهل في تقبل ما يضرهم على أنه مما ينفعهم.

السبب الثاني: فساد الأخلاق الذي دَبَّ فيهم، مع أهمية الأخلاق في تكوين الأمم وتقوية المعارف بها، وهذا الفساد غالب في أمرائهم وفقهائهم، فالأمراء ينظرون إلى رعاياهم وكأنهم أقنانهم[(٢)]، أما الفقهاء الذين يجب عليهم التحلي بالورع والنصح للأمراء، تركوا الوعظ والنصح، وأخذوا يتزلفون إلى الحكام لنيل

(١) حاشية شكيب على كتاب: حاضر العالم الإسلامي ٣ / ٣٤٣.
(٢) القِنُّ : العبد، وقد حُكي في جمعه أَقْنانٌ وأَقِنَّة الأَخيرة نادرة.

نعمائهم. (ص ٧٦).

السبب الثالث: شيوع الجبن في عامة المسلمين، أشاعه فيهم أمراؤهم وفقهاؤهم وأقنعوهم بأنه الحكمة، حتى قال الشاعر فيهم:

يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم

السبب الرابع: استكانة المسلمين، وإصابتهم بالقنوط واليأس، بعد أن فشا فيهم أن الغرب يملك الوسائل التي لا قبل لهم بها، ونسوا أن هذه الوسائل من صنع الرجال الذين يحركون المواد الصماء، ولا تحركهم المادة الصماء.

السبب الخامس: أنهم لا يملكون وسائل العلم الحديث والتقنية والمعرفة التي توصل إليه، كما لا يملكون الإرادة على تملكها، فضلا عن تخاذلهم وتفرقهم شيعا، وإفراطهم في حب الدنيا، وجمودهم على القديم، وعدم تجاوبهم مع الجديد من العلوم والفنون، فتداعت عليهم الأمم، كما تتداعى الأكلة على قصعتها.

السبب السادس: ضياع الهوية القومية بتقليد الغرب في قشور حضارتهم وترك اللباب، وليتهم أخذوا العبرة من اليابان فقد أخذوا عن الغرب تقدمه المادي، وحافظوا في الوقت نفسه على هويتهم وقوميتهم، كل مواطن في الغرب، وفى اليابان وفى الصين «متمسك بدينه وعقيدته وتقاليده فرح بما لديه، أما المسلم المسكين فيُطلب منه لكي يرقى أن يتخلص من دينه وعقيدته ويترك قرآنه وتعاليمه» ألا ساء ما يطلبون.

السبب السابع: ضياع أمر المسلمين بين خطر المسلمين الجامدين الذين لا يفهمون غير أن الإسلام جاء لفرض النقاب على النساء وتقصير الثوب للرجال وتكفير مخالفيهم، وتركوا الحض على الأخذ بالعلم الحديث والفنون العصرية، وخطر العلمانيين الجاحدين الذين يرفضون العمل بالدين جملة، وخطورة النوع الأول أنه مصمم على أن الإسلام جاء للآخرة دون الدنيا. وخطورة الثاني تكمن في سوء

طويته، لأنه لا يريد أن يكون الإسلام طريق التقدم والتمدن، فالمسلم الجامد جر على المسلين المصائب لأنه لا يتحمس إلى اشتغال المسلمين بالعلوم الكونية فصاروا فيها عيالا على غيرهم وهم أعداؤهم، والعلماني الجاحد يريد أن يرتمي المسلمون أمام أرجل الغرب الذي لا يمن على المسلمين إلا بمخلفات مدنيته أو حضارته.

ويرى شكيب أن هؤلاء الجامدين، وهؤلاء الجاحدين أشر فتنة على الإسلام والمسلمين.

بعد أن بين شكيب أهم أسباب الانحطاط، أراد أن يبعث الهمم من مرقدها، وكأنه يقدم الدواء لأمته الذي به تتعافى وتحيا الحياة الفضلى بين الأمم. ويبدأ بتنبيههم إلى مكايد الغرب ومن لف لفيفه من العلمانيين في بلاد المسلمين. فيقول: إن علماء الغرب يرددون مقولة أن العرب لم يكونوا يوما ما أهل تقدم ومدنية، بل مقلدين لمدنيات أمم سبقتهم، وهذا غير صحيح فاحذروه، لأن مدنية الإسلام إنما نبعت من القرآن وتعاليمه وتوجيهاته، وتفجرت من عقيدة التوحيد، والأمم تتقدم بالتمسك بالدين وتعاليمه، وبالأخلاق النابعة منه.

والذي دفع شكيب إلى تبيان ذلك حملات المبشرين والمستشرقين على الإسلام وزعمهم أنه سبب تخلف المسلمين وانحطاطهم ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥] ومع أن الأديان - غير الإسلام - لا يمكن وحدها أن تكون معيارًا للرقى المدني، فإن الإسلام وحده كان سبب تمدن المسلمين، فالقرآن وصحيح السنة يحثان المسلمين على العمل والنظر والتجريب والاستقراء لكل أحوال الكون. أما لماذا انحط المسلمون؟! وبينهم القرآن يتلى، فلأنهم تركوا تعاليمه في النظر والعمل، واستخدام العقل الاستخدام الصحيح، واكتفوا من الإسلام بالاسم.

القرآن باعث المسلمين على الترقي بالعلم:

رأى شكيب أن وسائل العلاج في التمسك بالدين والأخلاق، وحب الوطن، وتملك المال والعلوم والفنون التي تعين على التقدم والمدنية، وإن الباعث على ذكر ما جاء به القرآن الكريم من حث على العمل والعلم. قال تعالى ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، والآيات التي يحض بها القرآن على تملك العلم تقتضى أن المراد بالعلم: علم الكون. ولذلك جاء ذكر آيات العلم في القرآن أضعاف أضعاف ما ذكر من آيات العبادات.

وثمة كلمة يوجهها شكيب للعلمانيين في بلاد المسلمين الذين يقولون كذبًا بأن النهضة ينبغي أن تكون قومية لا دينية. نقول لهؤلاء: لابد لنا من تربية دينية قبل كل شيء، قبل التربية العلمية والوطنية فهي التي تجعل المواطن المسلم يؤمن بأن العلم ضرورة دينية قبل أن يكون ضرورة علمية أو وطنية. بل يؤمن بأنها ضرورة تجمع كل الضرورات في آن واحد. وتكون الثمار في أن المواطن عندما يتطلع إلى نهضة تكون نهضته دينية وطنية علمية ضاربة الجذور في التاريخ والأرض والثقافة القومية، والأخلاق والعادات الموروثة - والدين يجمعها جميعًا.

النصح للمسلمين:

وفى آخر الرسالة يوجه شكيب أرسلان النصح للمسلمين إذا أرادوا النهضة والتقدم في كل العلوم والفنون، فيما يلي:

١- أن تعود إليهم الثقة بالنفس، لأن فقدانها مرض يورث العجز عن اللحاق بركب الحضارة والمدنية المعاصرة.

٢- أن ينفض المسلمون عن أنفسهم غبار الخمول، وأن يبدأوا العمل بإرادة قوية لكي يبلغوا أعلى درجات التقدم والرقى العلمي والمعرفي، ويكونوا مثل طلعت حرب باشا، في رجاحة العقل وبعد الهمة، وحب الوطن. والإرادة القوية

وحسن استخدام المال. فبها غيّر طلعت حرب وجه مصر، وطالت أعماله العظيمة بعض بلاد المسلمين خارج مصر مثل شركة الملاحة البحرية لنقل الحجاج، ومشروعاته في إصلاحات طرق الحجاز، وإدارة الكهرباء، وتوزيع المياه.

إن المسلمين ينهضون بمثل ما نهض به غيرهم:

في خلاصة الرسالة رأى شكيب أرسلان أن على المسلمين واجب التمسك بدينهم، ثم يأخذوا بالأسباب التي أخذ بها غيرهم من الأمم المتقدمة، وتتلخص في: الجهاد بالنفس والمال، والعمل بمقتضى العقل السليم، والإرادة الواعية. والمسلمون إذا صدقوا وأرادوا التقدم بما حرضهم عليه القرآن أمكنهم أن يتفوقوا على الأوربيين، فهم حينئذ سيتملكون النهضة المادية مثلهم، وهم في ذلك يملكون كتاب الله يهديهم إلى الصراط المستقيم.

إن الأمم التي تقدمت تقدمت على أيدي رجال، والمسلمون رجال، ولكن يعوزهم في حاضرهم عزائم الرجال أصحاب الهمم والعمل، وقوة الإرادة التي يملكها أسلافهم العظام.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩].

كتبه شكيب أرسلان بلوزان في ١١ / ١١ / ١٩٣٠:

وللرسالة مستدرك:

لهذه الرسالة مستدرك في كتاب أبي الحسن الندوي: «**ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**» . وهو يرى أن المسلمين بالرغم مما هم فيه من علة وضعف هم الأمة المؤهلة لقيادة سير البشرية، ومراقبة أعمالها وقيادتها إلى الفضيلة. فمع أن العالم الإسلامي الآن قانع بالقليل، لكنه مستعد للهداية إن وجدت إلى القلوب سبيلًا، فإذا أراد أن يستعيد أمجاده فعليه أن يعيد قراءة إرثه الديني والعلمي، ويأخذ بعلوم

العصر مع التشبع بروح الإسلام، فإن حقائق الدين موصولة بكل العلوم النافعة التي تقيم مدنية العصر الحديث.

وعلى الأمة الإسلامية أن تستقل بشئونها في مجالات التعليم والتربية ولا تُصَادِم غيرها من الأمم بغير ضرورة، وعليها أن تعزم على الانتفاع بثروات أرضها من محاصيل ومعادن وطاقة. ولقد حباها الله تعالى أعظم موقع في مركز الأرض، وأعظم أنهار الدنيا، ولو أنها ملكت قرارها لصارت أعظم أمم الأرض وأقواها وأغناها، وإن مصر على وجه الخصوص غنية بعلمائها ممن بزوا علماء الدنيا المعاصرين في علوم الطبيعة وفى مجالات الفضاء، والكيمياء الحيوية وغيرها من العلوم التي عليها قوام الحياة، ولو تحقق لهم على أرضهم المناخ الصحي لحققوا أعظم الإنجازات العلمية، ولحققوا التقدم المطلوب.

*****

obeikan.com